



## عودة الروح

للمطرب الفرنسي تيودور دي بافتيل

أن تضع — بحرقه — أداء واجب عليها أداؤه، أو وصية لا بد منها . وهكذا فتحت الصندوق وألفته مليثا برسائل جمة، لا تحمل العنوان على الأغلفة كما هي الطريقة الحديثة، ولكن تحمله على شرائح من ورق رفيع . وقد علت — بعد أن بصرت بأول خطاب — أنها ليست رسائل جدتها مدام دي برييل، ولكنها رسائل أم جدتها — السيدة إيودكسي تيرين . وقد رأت هورتنس تلك الجدة العتيقة . فإنها لم تمت إلا أخيراً في سنة ١٨٨٢ . ولها من العمر خمسة وثمانون عاماً

على أنها تستطيع أن ترى خيالها كل حين إن أرادت ، فأسرتها تحتفظ لها بصورة رسمها البارون جروس ، في ميمة شبابه ووفرة صباها . وقد كان عن طريق غريزة ركبت فينا ، نشربها ولا نستطيع أن نكفيها ، أن رأت هورتنس دافراي بينها وبين صورة الجدة — التي صورت من ثلاثة وخمسين عاماً خلون — شها قوياً . بل لتكاد — إذ تنظر إليها — ترى وجهها في مرآة صافية !

ذلك بأن الطبيعة يحلو لها في فترات مختلفة وفي أسرات خاصة، أن تعيد خلق وجوه دوست وتوت والتراب من أمد بعيد .. تعيد خلقها كما كانت ، كأنها مثال يأخذ عدة أشكال من قالب واحد . ولكن المرء يسائل نفسه في تلك الأحوال : إلى أي حد يبلغ الشبه ؟ أيقصر على الوجه والخلقة ؟ أم يسيطر على الأفكار والمشاعر ؟ أم ينفذ إلى سواد الفؤاد ؟ تلك مشكلة من مشاكل العلم الحديث يرمينا بها فتفتح أمامنا آفاقاً واسعة غير ذات بر ولا حدود

وقبل أن تقرأ السيدة دافراي أولى الرسائل لمحت سكة كبيرة تندرج في الصندوق بجوار جداره الزقيق . فالتقطتها ، ونفقتها ، فإذا بها رسم ملازم شاب ، من ضباط الدولة الأولى ، ذي شعر وحف جمد ، وعينين يلعب فيهما بريق الشهامة وبأس الشباب . وجهه قسمتها ندية جرح طولي إلى قسمين عريضين . ينبسط أكبرهما من حاجبه الأيمن إلى منبت الشعر بوسط الحيا . وجهته طامة جبهة شجاع جسور . وأدمنت هورتنس النظر في الصورة ، نجفبها بريق العيتين ، وقتها سحر الجمال ، وأخضعها بأس الهوى . فاستشمرت في قلبها آلافاً من الشاعر المتضاربة

استكلت السيدة هورتنس دافراي في ١٨٨٢ ربيعها العشرين ، وليس في قولي « السيدة » مجازاً مني ولا مينا . فقد كانت هورتنس زوجة ، بل أرملة بائسة لا ولد لها يسهر عليها ولا قريب يؤويها إلا جدتها « مدام دي برييل » .. استقدمتها تلك الجدة لتشاطرها العيش في سكنها بخارج ليل . وكانت هورتنس تنشق — بقرب جدتها — آخر نسبات الميثة العائلية الهادئة تهب عليها في وني وهدهوء . قد مضى الآن حولان كاملان على وفاة جدتها الطيبة التي ماتت حزينة قلقة على مصير حفيبتها إذ تركها وحيدة في غياهب الفقر وأمواج الحياة . إنها عمرت ثمانين عاماً رأت منها من تحب يتزوجون ، ومن تعرف يرحلون ، ولم يبق منهم أحد تعهد إليه بحفيبتها البائسة

ولما أحست مدام دي برييل بأجلها يقترب ، رتبت أمرها في شهرها الأخير ، كي لا تعلق بال حفيبتها . ولقد غالت الجدة في ذلك ، فكانت ترى أوراقاً كثيرة في النار وتحفظ الأخرى . وكانت الجدة تحتفظ — طوال مرضها — بصندوق صغير في دولابها الكبير . وكانت تضع مفتاحه في خيط من الحرير تحت الوسادة الحائلة . وكثيراً ما كانت الجدة تمسك الصندوق ساعات طوالاً ، كأنها تريد أن تنتهي من أمره إلى حل ، وتتخذ حياها ما فيه قراراً . ودهمتها سكرة الموت قبل أن تقرر مصيره أو تتخلص منه

واستشمرت السيدة دافراي قلقاً يساورها عندما عثرت يداها الباحثان على الصندوق الصغير

وقررت أول الأمر أن تحرقه — أمانة منها وإخلاصاً — دون أن تعرف ما فيه من أسرار . ولكنها لم تفعل ذلك خشية

الحب والهيام . ويشها وقدة الشوق وجذوة الهوى . يسطر لها رسالات مترعة أسى وعذاباً ، تقرأها الآن حفيدتها الصغرى بين دمع واكف وقلب خافق ، بين صدر يملو ويهبط كاللوج ، وأنفاس حرى تذهب وتجي . كان من أجل إيودكسى — كما كان من أجل نابليون — أن خاض فرانديير المعارك الدامية ، وشرق في البلاد وغرب ، وفاسى كثيراً واصطر . كان يريد أن ينصر العاهل حتى النفس الأخير ، وأن يكسب لإيودكسى عرشاً نفياً

ومات في تلك الأثناء زوجها . وجن فرانديير الأمل ، وحن إليها ففكر في الرجوع إلى الوطن . وبينما الأمل ينمو ويوطد الجذور ، والشوق يستمر والقلب خفاق ، إذا به يقع في الميدان يتشطح في دمه المغم ، وإذا برصاصة تخترق صدره العاشق وتسكت قلبه الخفاق . فتوى في حزون سمولسك الباردة وحيداً ، لا قلب يحقق له ، ولا دمع يترقق في المهاجر أسى عليه . ونسى فرانديير زميل ائتمنه على سر قلبه وذات صدره . وكان خطاب الرميل مع الرسائل الأخرى في الصندوق الصغير

ما في هذا الأمر من شئ غريب . ولكن الغريب حقاً أن يترأى لهسورتس دافراى أن التوسلات والذكريات التى حفلت بها الرسائل ، وأن الجوى والهيام كل ذلك لها هي من دون جنتها إيودكسى تيرين . واندفعت روحها الظامئة ناشدة ذلك الحب ، تاركة وراءها الحقيقة ونواميسها ، وحلقت بالفرام في الخيال غافلة عن الواقع ونظمه ، وتجادت في ذلك فاستباححت لنفسها أن تخلق المدوم وأن توجد المستحيل ! ولم تكف بذلك بل وهبت نفسها لفرانديير هذا دون أن تفكر لحظة أنه مات منذ أمد بعيد ، في تيه المجد وضجة النصر المبين . واعتقدت أنه يوماً موافياً ، وأنها ملاقيه بعد أمد قريب أو بعيد ، وأنها مسلمة عليه ومصنية لحدثه الحنون ، ولم يخامرها في يقينها هذا شك ، ولا وجدت على عقيدتها عباراً ... رأت فأجبت فأغرمت فتعذبت ثم راحت تنتظر الحبيب بثقة واطمئنان !

لو رأى الناظم المعجزات في حلمه لما استغرب ، لأن النفس تكون متطلقة من الواقع ونظمه ، والحقيقة وأشراتها . وكذلك لم تستغرب هورتس دافراى — حينما كانت تزور مدام دى

الركبة ، آلافا من خوف وأخرى من سرور ، إنها تحب ! ولكن ويلها من تحب ! ففتى مرت على وفاته حقب وأعوام ، وتوالت على قلبه أحداث ورحام ! فتى دالت دولته ، وراحت مولته ، وقدر لها الأتراد على الأرض حيا ! ... ولكن كثيراً ما لعبت الجذوة التى تلهبنا بالحقائق والأفكار ! وكثيرا ما كانت الحقيقة شيئاً مستحيلاً ، فليس ضرورة أن يكون الشئ ممكناً حتى نقول بأنه حقيقة

وإنه لمن الضلال البعيد أن نقول بأن هورتس قد نجأها الحب ، ولكنها كانت تشمر في قلبها بحب قديم ، له آلامه وآماله ، ولسبب ما خد وانطقاً بل ترع من القلب والذهن انتراعاً . ولكنه استمر نجأة ، وقفز إلى ذهنها وقلبها ممأ بمنب هذا بالذكريات ، ويكوى ذاك بالشوق والألم

وتفقدت الرسائل فإذا يامضاء واحد يذيلها جميعا . وقرأتها في شغف وجنون . ثم كانت لا تنى عن القراءة والإعادة كأنها محمومة . ولم يكن عسيراً أن يجمع المرء خيوط القصة التى أنجبت تلك الرسائل

تزوجت جنتها السيطة إيودكسى تيرين من أحد تنتمدى الجيوش . وكان كهلاً أنانياً ، أفسدته الخلاءة ، وأضواه المجون . وقد مكنتها مهنة زوجها من الاتصال بضباط الجيش . فبها بمحبا ملازم شاب من جند نابليون ، يدعى بول فراند وجرفها تيار هواه . فلم تستطع أن تقاوم أو تثبت . فسارت التيار في هواده وإخلاص . فكان جميلاً أن ترى عاشقين شفهما الهوى وبرح بهما الفرام بتماطيان كؤوس الوصل مترعة هنية ، وينهلان من منبع الحب الخالص ، فيحلمان بسعادة خالدة ، ونعيم منيم . غير أنهما — طوال الوقت — يشعران بأجنحة الموت السوداء تصفق فوقهما كأجنحة الحفاش الأعمش ، ويانسان بمسوح الردى الطخيا ، تهددهما بالبعد والحداد

وسرعان ما تبددت الأحلام ، وحلت المخاوف ! لقد فرق الدهر المشتت بينهما أيام « أوسترلر » وإينا وإيلو ، أيام فريدلند ووجرام ... وكانا قليلا ما يلتقيان — في تلك الأعوام العصية — لحظات معدودات . ولكن فرانديير كان يختلس ما بين واقعتين أو ما بين نصيرين فيسيطر لها — وهو أشعث أغبر — آيات

وفؤادى ، وسرى بين لحمى وعظمى . لم يفارقتى ذلك الرسم منذ  
خلص إلى وتناهى من ثلاثة أعوام خلون . واصطحبني في الفتح  
والحروب ، في النفق والخنادق ، فكان رسول السلام إلى قلبي  
الموله الجازع إذا ما اشتد الزلزال وحى الوطيس ، وكان بشير  
الحصانة إذا ما رنق على الرؤوس الموت ليختار على أى يقع . كان  
فيض الأمل ونبع الحياة ، كان كل هذا برغم ما كنت أعلم عن  
موت صاحبتى . ولكنى لا أملك من أمرى شيئاً . وكنت أعلل  
نفسى أنى ملاقيها في جنان الرحمن حيث لا تعجز القيا ... ولم  
يكن خيالى يستريح لنفسه - وهو الشرود الجروح - أن  
يقصورها حية في عصرنا هذا . فهو إن صورها بصورها نائمة  
بجلال بين الورود والزهور في جدتها الماطر . فيطير لبي شعاعا ،  
وتسرق نفسى هيما وجبا !

- هذا حسن ! ولكنك لم تحدث لى من أمر الصورة  
ذكرآ . كيف تناهت إليك ؟

- ذاك أمر بسيط ! فقد كان لدى أبى - فى مكتبته -  
مكتب مهجور . طلبته منه كي أستذكر عليه فأعطانيه ولم يهمل .  
وقال لى إنه من مخلفات - سمي - عمه الأكبر پول فرانديير .  
كان ملازما فى جيش الدولة الأولى . ومات فى سمولسك فى السابع  
عشر من أغسطس سنة ١٨١٢ . وكانت مفاتيح المكتب ضائعة  
فاضطرت إلى كسر أغلاقه ، وفى أحد أدراجة الخفية عثرت  
يدى المجدودتان بتلك الصورة المقدسة ، ولقد عشقتها من  
ذلك الحين

- حقا إن فى ذلك الحادث جانباً كبيراً من النعوض  
والإبهام ، وعلى أية حال فأنت شاب طليق وهى فتاة حرة . فلا  
مانع يفصلكما من الحب ويحرمكما الزواج

ولكن الأمانى كانت سراياً . فقد اذكر كل من پول  
وهورتنس صاحبه ، فتذاكرا المهود وجددا الغرام ، فتما بجنته  
الحب لأمد قصير . ولكن پول ذهب فى فوجه إلى «تونسكين»  
وهناك مات - بكده - برصاصة شقت الصدروبات فى الفؤاد ،  
أى بؤس وعذاب !

سيمور - أن تملن الخادم قدوم السيد پول فرانديير !  
وأنه يدخل ، هو بعينه الذى أحببت وتحب : پول فرانديير !  
پول فرانديير بشمره الوحف المجد ، وعينيه السوداوين ، ثم بندبة  
الجرح فى جبهته المريضة ... لم يكن هناك فرق سوى أنه يرتدى  
زى ملازم من مدفعية الفوج الإفريقى الأول ... كلا ! لم تعجب  
مدام دفيراي إذ تراه ، فقد كانت تنتظره بصبر واطمئنان . على أن  
قلبا غاص فى حنايا صدرها البض ، وراح يحطم ضلوعها بمحقة  
الشديد ، وودت إن لم تكن بين ذلك الجمع من الرجال التأتين  
وتلك الثلة من النساء ذوات الأساور والحلى ، فتقفز كالغزال إليه ،  
ثم تنيب فى أحشاء صدره الرحيب قائلة « هأنا ذى » !

وأنحى فرانديير لعنته مدام دى سيمور . ثم رى هورتنس  
نخبة ، فبهت ، لا عرف لديه ولا نكر ، وغاض لونه واصفر  
وجهه ، واستطاع بعدلأى أن يمتد على الحائط وأن يجر قدمه الواهنة  
إلى مخدع كان لحسن المظ خاليا ، فتخاذل وارتمى على بساطه  
التمين . ودهشت مدام سيمور من سلوكه الناشز عن العرف  
والتقليد ، فتعقته إلى حيث تداعى يثن أنيناً . ودخلت المخدع ساعة  
رانت عليه صفرة الموت وغاب عن الوجود

واستدعت عمته طبيياً مشهوراً من أضيافها . ولكنها  
أحست - بفريرة المرأة - أن هناك سرا لا يحسن أن تنض  
غلفه لأحد غريب . فنجت على العليل تلك رأسه وصدغيه ،  
وتنشقه بعضاً من ملح قوى مفيق . ثم رفعت رأسه براحتها  
واضعة تحتها وسادة من حرير غال

ولما أن أفاق وناب إليه الوعى ، دس يده فى جيب صدره  
وأخرجها تحمل رسماً على ورق قديم ، حله قبلات والهة ، فأراه  
عمته ، ثم صاح فى فرح المجنون وطرفه غريق فى الدمع المhton :  
« أى بلانش ! بلانش ! إنها تحيا ! » فأجابته عمته : بلانش !  
بالطبع ! إن هورتنس دافراى تحيا ، وهى فوق ذلك صديقتى .  
ولكن قل لى لم تدخل فى زى النولة الأولى ؟ على أنك لم ترها  
مرة واحدة ! فما معنى تلك النوبة التى اتنايتك من لحظة ؟  
فقال فرانديير :

- إنى لم أرها إلا الآن ولكن روحى هامت بها من زمن  
بيد ، وأوسعتها حبا وعشقا . وقد استقر حبا بين جوانحى